ماريو أغيل كيلتيرو

أقرب

ترجمة
أحمد م. أحمد

ماريو أنخل كينتيرو

Mario Ángel Quintero

شاعر وروائي ومسرحي وفنان تشكيلي كولومبي. وُلد عام 1964 في سان فرانسيسكو، كاليفورنيا، حيث أمضى العقود الثلاثة الأولى من عمره في دراسة الآداب في جامعة كاليفورنيا. ونشر القصة القصيرة والشعر والمقالات بالإنكليزية تحت اسم George Angel.

يقيم كينتيرو منذ 1995 في مدينة ميديين، كولومبيا، وهناك نشر مجموعاته الشعرية بالإسبانية، «خريطةُ الواضحِ» (1996)، و«تتضاءلُ الروح إذ تشقُّ طريقها نحو ليمبو» (2009)، ومسرحية «كيف تموت في حديقة أحدٍ آخر» (2009). وهو أيضاً فنان تشكيلي، ويعمل منذ 2003 مديراً وكاتباً مسرحياً لمؤسسة Párpado Teatro المسرحية. نال منحة والاس ستغنر للأدب من جامعة ستانفورد.

الإهداء

إلى بيرتا نيللي أربوليدا رايِز

«تبقى ظلمته المتعالية عميّةً عن كلّ ضوء وعصيّةً على كلّ وعي».

ديونيسوس،

«الرسالة الأولى إلى الكاهن غايوس».

النصّ التالي هو رحلة بدأها أخ اسمه (أد) مع أخته (سور) وزوج الأخت (تاش). في زيارة قريبهم (بيتن) الذي يعيش سكرات الموت، والذي كان قد أرسل رسالة تقول إنه يحتاج للتحدث إلى الأخ قبل موته. تسير الرواية على إيقاع الطريقة التي يعيشون فيها حيواتهم، كاشفةً عن أحاسيسهم وغرائزهم. أدْ (الأخ) أسيرُ حملٍ فائضٍ من وعي الذات والتحكم بالنفس، ما يجعله يفكر بمرور الوقت أن هذا الحمل سيقلبه من كينونته الحيوانية إلى كينونته الوحشية. إنه الراوي للفصل الخاص به. بعد ذلك، سنصادف «حيواناتٍ» أخرى و«وحوشاً» أخرى، بل وحتى «قاتلَ وحوش». قصدتُ أسلوب ونبرة الحيوانات الرامزة في الأدبيات القروسطية. أجدُ أن ذلك، ضمن صيَغٍ مختلفة في ما يسمى اليوم العالم الثالث أو على

الأقلّ في كولومبيا ، بالغَ الشبه في بُناه الشعائرية بأوروبا القرونِ الوسطى. إن المواجهة بين وعي الذات ولغز العنف، مما خلّقته الطبيعة أو ما ارتكبه أناس آخرون، تولّدُ استجابات متطرفة، تكاد تتاخم الوهم.

استهلال: وصيّة العم بيتن

حيوانات. كلّنا حيوانات. باستثناء المرتبكين قليلي الخبرة، الذين وُلدوا كي يتماوجوا أو يقعوا في الشواش. لكن أولئك ينبتون من أنفاسهم وحسب، لا ينمون ويزدهون من اقتيات الرحيق ومن الضوء، ونحن لسنا من بين هؤلاء. مهلاً، فلنعدْ إلى شَرطِنا. كلّنا حيوانات. نؤدي ما تمليه حوافزُنا وأهواؤنا. إننا مُستنفَدون في سبيل ما نحتاجه في كلّ لحظةٍ نعيشُها، وسنفعل أي شيء للعالم، أو لبعضنا، أو لأنفسنا كي نفوز به. لدينا المشاعر الجيّاشة، لكننا لسنا مرتبكين. نحن نكذب ونقتُل ونستبدّ. نحن نأكل، ونترك الآخرين فريسةَ الموت. هذا ما يُسمى بالحياة. عالمنا حافل بالسحر والشعوذات. وكلا العنف الذي نمارسه، ودماثتنا التي يلفّها الحزن، لا جدوى تُرجى منهما. إننا نعاني أو نزدهر مثل أي شيء قبل أن تعاني أو تزدهر اللامبالاة المهولة بالمخاطرة. نشاهد ونسمع ونُحِسّ بالأشياء التي ليست في المتناول، فهكذا هي الطريقة التي تعمل وفقَها الرؤيةُ والسمع والإحساس. وما نؤمن به في وهلةٍ بعينها مرتبط بمخاوفنا وآمالنا. حدَثَ مراراً أنْ نظرْنا إلى أن شَعرَ امرأةٍ مُرْسَلاً بكلّ جاذبيته إغواءٌ للملائكة. أحسسنا بالحاجة في موقف ما لأن نلعنَ أشجارَ التين. لعنّا أنفسنا كبشرٍ قذريّ

الشّفاه. وحين السّقام، آمنّا بأن الآخرين سيشفوننا فنذرنا الأضاحي. بعثْنا بالأولاد إلى الجبال، وفي ظننا أنّ هيئاتهم سيعتريها التبدلُ حين عودتهم. وكما أسلفتُ، كلّنا حيوانات. البعضُ منّا أُسود، والبعض ثعالب، وآخرون نعاج. غير أننا جميعاً حيوانات.

ثم يحلُّ الندم الأول. ومع الندم الأول، يأتي الاستبطان. مع الاستبطان الأول، يأتي الوعي. وحين نعي أَثَرَتَنا، أو وحشيتنا، نُدرك أننا عالقون في مستنقعٍ أبديٍّ ليس إلى العَودِ منه سبيل. وها نحن الآن نبدأ بلعنٍ أنفسنا لا لأن اللعن أُمْليَ علينا وإنما لأننا بغيضون. تصبح ضآلةُ أرواحِنا متناهيةُ الصّغر مسألةَ فِطنة. وتبدّل وجهة النظر هذا يبدو بجلاء للعيان وسطَ الجماعة. وهذا الأمرُ على وجه الخصوص ناشزٌ لا ينحصر في أن المرء الذي يكابدُ هذا التبدّلَ إنما يبدِّلُ من سلوكهِ أو سلوكها أو يصبحُ أقلَّ تعطّشاً للدم، أو أَثَرَةً، أو توحّشاً. لا، بل إن التبدّل الوحيد في أن يكون متنبِّهاً بقوة إلى أن الفردَ هو تلك الأشياء مجتمعةً. إنها مسألة وقت ريثما تعي الجماعةُ أن هذا التبدلَ قد حدَثَ لدى واحدٍ من أعضائها، رغم أن البعض أكثر مهارةً من غيرهم في إخفائه. عند هذا المفصل، يعبرُ الشخصُ من كينونةِ الحيوان بكل ما ينطوي عليه من براءة إلى كينونة الوحش. هؤلاء الوحوش منبوذون، يترحّلون عادةً من قرية إلى أخرى، أو يبيتون في الأماكن

النائية العصيّة على الوصول. تُلقي الأساطير بهؤلاء الوحوش في مهلكة استثنائية حين الجائحات أو الكوارث. قد أُسبغتْ عليهم كافة ضروب القدرات السحرية، ويُظَنُّ أنهم يتقنون كلَّ أصناف القذف واللعنات.

وكواحد يعيش أيامه الأخيرة بين هؤلاء الوحوش، فإن ما يؤنسني على وجه الخصوص هو وافدٌ حديث العهد على عالمنا الثنائي المؤلَّف من الحيوانات والوحوش. إنه بطل اغتسلَ بالصلاحِ وحسْن الطويّة ظهَرَ كي يهدّئَ من روع جماعاتنا. وهؤلاء الأبطال معروفون كقَتَلةِ وحوش، وما يضمرونه في دخائلهم من إشعاع الطيبة والنقاء قد حلَّ ليشيح إلى الأبد الظلمةَ والريبة اللتين استثارتهما الوحوشُ فيما بيننا. سيعثرون على كلِّ وحشٍ منهم، وهم متوارون في عرائنهم، وبجرجرتهم إلى الضوء، سيُجهزون عليهم للأبد. سيخدمون الجماعةَ بقتل الوعي. إن صلاحَ وشموخ أنفسهم لا تحدّه حدود، ومع ذلك لا يزالون تحت الخطرِ الجديّ في أن يتحوّلوا إلى ما يصيدونه ويقتلونه. وكلّما تجاسروا على الحدّ الفاصل وهو موئل الوحوش الطبيعي، يُصيبهم رذاذ الشك، ويُلطَّخون بالارتكاس، ويُلقى عليهم بالضوء الكالح الذي تطرحه جثّةُ وحش تستعر فيها النار. أيضاً، ويا للغرابة، قلّما تنتهي رواياتهم على أكمل وجه. ثمة شيء يحيقُ بعفّتهم وبراءتهم مما يولِّدُ الريبةَ في أوساط جماعة الحيوانات،

وهذه الجماعات ستقرر، في نهاية الأمر، أن تلتهمهم أو، على أقلِّ تقدير، أن تلفظهم خارجها.

جرس خشبيّ

١

بدأتِ العبّارةُ بالتحرك. خلَفتْ منطقة القصب وانزلقنا إلى العَدم. وبينما وقفتُ على متنها أرقبُ قامات رجال العصيّ في ضوء المشاعل، تأمّلتُ **الأخت** وفي ما قد وعيتُه اللحظةَ. ليس للحيوان من خطايا. جلستْ على حافة العبّارة تتطلّع لا (**نحو**) بل (**داخلَ**) شيء ما لم أستطع تبيُّنَه. كانت أختي، وكنتُ في ذلك النهار قد عرفتُ أمراً عنها لم أعرفه من قبل. وتساءلتُ ما الشيطنة التي تُضمرها تجاهنا.

بانزلاقه معنا، استثار الضوءُ الآتي من لهب المشعلِ انعكاساً خافتاً من الظلمة الملساء للبحيرة، ضوءاً صقيلاً، وتواصلَ الصمت وقارَبْنا المركز حيث أعماقُ البحيرة السحيقةُ، بدأ هذا الضوء المنبعثُ يتجلى أكثر فأكثر وجهاً لملاك، ومهما تبدّى مبهماً لأولئك الذين على ظهر المركب، إلا أنه استطاع بَسْطَ غشاء نورانيٍّ على سبخات البحيرة الضحلة، وهكذا كفانا شرَّ اللوياثانات العصية والمهولة التي انفلتت من إسارها ودفعت باتجاهنا الاحتمالَ الذي كانت قدِ احتوتْه الظلالُ، احتمالَ أن نُبْتَلَع.

الآن، فوق الأعماق، تحوّل رجال العصيّ إلى رجال مجاذيف، وبدتْ راحاتُ المجاذيف المديدةُ كبتلات تُزيّن زهرة لوتس في انسياقها العبثي مع الماء. وما حولَها، بدتِ البحيرةُ تتسع أو تتطاول داخلَ الظلمة دون أن يحدث الاتسا ع والتطاول في الآن ذاته، كالمساحة التي تتركها لمسةُ إبهام على إبهام وسبابة على سبابة. كانت كل محاولة لتقدير البُعد بلا جدوى. كنّا في العدم، وتشمّمَ «تاش» الهواء بعصبية، أربكه تلاشي الوُجهاتِ. أصبح الزمن استعراضاً مموسَقاً يتحلّل وسطَ الكثافةِ إلى سكونٍ، وخِفّة، وإحكامٍ في مواجهةِ ظلمة لا تني تتكاثر. رُفعتِ المجاذيف، التمعتْ لوهلة، ثم انثنتْ عائدة دون كلل إلى تخويضها الكئيب.

ستكون الغابات التي كنا نرودُها بين حين وآخر على الجانب الآخر من البحيرة اللامتناهية على نفس القدْر من الرتابة والسكون. لدرجة أن طاقم القارب دهنوا بخطوط حمراء عموديةٍ جذوعَ الأشجار الأقرب إلى مكان الرسو لتمييزها عن مثيلاتها المحيطة بها. لن نلبث أن نلمح القصبَ الممتدّ من الشطّ ومن ثم رويداً رويداً ضربات الفرشاة الحمراء تلك، ويظهر أننا نطفو فوق القصب الأخضر في منطقة الظلّ المتكاثف. أخيراً، إذ ندنو منه، نجد أن قشرة هذا القصب قد تخضّبتْ بمزيج الرماد والقَذَر، علقَ على سوقٍ نحيلة متقاربة للغاية

لتعطي الانطباع بالمناعة ضد الاختراق، أو على الأقل بتصيُّدِ كلّ من تسوِّلُ له نفسه الدخول. أدركنا أن هذا ما كنا ننجرف باتجاهه، وربما للفكرة ما يبرّرها لمدى الاتساع المتلألئ الذي خبرناه فوق مركز سطح البحيرة. ومن قلبِ اتساع مطبق وانسيابٍ متَّئِد يتلوه اتساع آخر، اندمجَ ضوءُ مشاعلنا في كلّ واحد. أدركنا ما نحن مُقدمون عليه، فقد عشنا هذا البُعْد من قبل.

٢

«انتزعتُ منها وعداً بأننا سنعود إلى بيوتنا. قلتُ لها إني لن أقوم بالرحلة ما لم تتلفّظ بوعدها». كان الصباحُ مختالاً في توهجه، والشمس في حيّزٍ ما قريب. كنتُ أثناء ذلك قد أويتُ إلى إغفاءتي الكئيبة الباهتة، إلى مُختبَإٍ، إلى ما لم يكتمل بعدُ، مُذ تجاوز الأمر حدود طاقتي فيما يتعلق بالحدث الذي كنا مُقْدِمين عليه. رغم أن كلمات تاش وصلتني بدقةِ المنمنمات المطرّزة بالحساسين. كانت هذه طريقته، أن يخطو بعناد باتجاه الفردوس، حتى لو كان الأمرُ ترحالاً في دائرة مغلقة.

تدافعتِ الغيومُ أمام الريح، طريةً، متناغمة، التَمَّ بعضها على بعض كأنما شملَها جناحا بجعة، لكن بطريقة ما، ليس (داخلَ) الأزرق بل (فوقَه).

لم أعد أرقب عراءَ السماء الصباحية، شعرتُ أن عينيّ قاسيتان كالحجارة. على نحوٍ ما غمرتْهما كلمات تاش الحارةُ الزاهية، وسيكون من دواعي سروري أن أصونهما، أصون عينيّ في تلك الوهلة. سيكون من دواعي سروري أيضاً أن أَخيطَ السماءَ جِراباً لأجلهما.

٣

لم أدرك كم كانت كلمات تاش الصغيرة النقية صعبة التحقيق. لكنني شهدتُها في الظهيرة، مع توغّلنا في الغابة المحيطةِ بالبحيرة. شهدتُها (**في**) و(**حول**) «سُوْرْ» في تلك اللحظة بالضبط.

كنا نعبر الغابات تحت جرس مطر خفيف لبعض الوقت، وأوشكنا على الإسراع في هبوطنا إلى وادٍ صغير لعلنا نحظى باستراحة وجيزة حين وقع فجأةً ما يحول بيننا وبينه. مالت الأشجار دفعة واحدة، بغتةً باتت أقرب، تكيدُ كما الخيزران. ثمة اخضرار في الجو. تألّقت الظهيرة كمطر ربيعي أصابَ دفئاً في وريقات مِلعَقيةِ الشكل. وكمثل عنكبوت الغابة، أنزلَ الضوءُ سيقانه عبْرَ فرجات الأشجار الرطبة. كلّ ذلك باعَدَ ما بين هذه وتلك، كان جرسُ السّديمِ الغشاءَ الوحيد. ثمة مِدقّة كبيرة رسمت حوله دوائرَ، ولوهلة لاحت للعيان. أتُراها فزِعت إلى السماء مطرقةُ الجرس الخضراء؟

ثم طرقتْ أسماعَنا ضحِكاتُ «سور». كيف تقرع مطرقةٌ كأعضاء ذكرية أعالي الغابة، فليُطرقِ اللحاءُ المبتلّ، مثل فراشة تطير بمحاذاة خشب السياج بلا مبالاة نحو نافذة مضاءة. هاجتِ الأشجارُ كوكرٍ يُؤوي أرواح ثعالب، ولم نستطع رؤية «سور» في أي مكان. الثعالب، الثعالبُ تأتي إلى منابت جذوع الأشجار. احتشدتِ الظلال بالثعالب. ضحكات «سور» التي طاردتها الريح أنبأتني الكثير. قد كشفَتْ عن نفسها بتواريها، كما يفعل قليلو الخبرة. أطراف الأذيال. الاحمرار. التَّشَمُّم.

وجدنا «سور» وقد تكورت وراحتْ في سُبات عند قعر الوادي الذي لمّا نبلغه بعد، لعلّ مسحة الضحك لم تفارقْ وجهها. كانت ملابسها جافة تماماً، كأنها لم تكن برفقتنا في الفترة الأخيرة. هباء أبيض، علقَ في الأخضر، كانت بلا زينةٍ في حضرة نيسان ماكر.

مالتِ السماء إلى الزرقة. ومرة أخرى نشدتُ مُخْتَبأً. شجرة كاميليا عملاقة تصدّرت الوادي، انتثرتْ مآبر أزهارها المتساقطة حول «سور»، وأغصانها المتشابكة المتفرعة في كل اتجاه التي حجبت السماء تشق طريقها إلى العمق، تخوّض في بعض ماءٍ حيث تحللتْ أعمال صالحة سوف لن تضيع، بعضِ ماءٍ طلِقِ الروح، آلَ أزرقَ. أغصان الكاميليا، نَسْجُ مُزَيَّنٌ هدّار، انقذفت في شتى

أرجاءِ الدَّخيلةِ. شعرتُ بأن جسدي مسجّى، مكسوٌّ بقاربٍ من لحاء يثير جذعُه الاختلاج، فأنساقُ فيه. إلا أن الكاميليا لم تعرف شيئاً عن الاختباء والنِّشدان، التجحّرِ والظهور. تلك كانت ألاعيب «سور» التي شغلتْ ذهني في الوادي. لم يسأل تاش أيّما سؤال لكنه نحّاها كأنها لم تكن أكثر من رزمة تنتظر الحرق، دون أن تعيق المسير. فلتؤمن بهذه الشجرة، قلتُ له. هدأ من ارتعاشات اليقظة الأولى لدى «سور»، فتوسّدت ذراعيه لوهلةٍ أخرى. كانت قامتها مقطعاً لفظياً مفرداً يطوف مع الهواء المجلجل. وفيما أرصدُ ما يحدث، حاولتُ أن أكون (**أنا**). فبوسع الحيوان أن يبني عشّه أو وِجارَه في أبغض الأمكنة. وما بين الفتائلِ المتألقة داخل شبكته، كتبَ العنكبوتُ كلمة ماما بخطّ (بالمر) متقن.

تحت الأشجار، ثمة ظل، مُقفَرٌ، مُقفر. كلُّ ما هو مرئيٌّ عابرٌ. الذاكرة تهرسُ الفاكهة. يتخمّرُ العارُ في ارتعاشاتٍ نَدِيةٍ موغلةِ الخرَس، تكوّمتْ مُبهمةً قصيّةً لكنها لم ترحل أبداً. بدَر عني حفيف بينما أحملُني. تاش، عذباً وسخيّاً، كطعم اليامِ، حمَل «سور» بثبات نحو الطمي على حافة البحيرة.

تهْتُ فيما بعدُ، كما من قبلُ. أنتقلُ إلى خشبات العوّامة وها ندنو الآن على متنها من الطرف القصيّ للبحيرة.

٤

بدأ الطنين من جديد ورجِعَ الزمن. ظلّلَ القصبُ الغطاءَ الأخضرَ قريبَ المدى. الموضع الأقرب يعمّه السكون، ذؤاباتُ من ندى البحيرة تشبّثتْ بسطح الماء الذي توشّى الآن بالأوراق. كنا ساكنين، متكورين وسط القصب، ثمة ما طوّقَنا مرة أخرى، ولمحتُ عينَي «سور» تبرقان تحت المشاعل. بعيداً عند الشطّ لاحتِ السبخاتُ بأجماتها الكثّة المتناثرة التي غُسلتْ بتموّجنا الطفيف.

في جَوْنٍ صغير، انتصب بلشونُ أبيض ساكناً لفترة طويلة قبل أن يلوذ إلى مكان آخر.

عبرْنا شراذمَ ظلالٍ لا تزال تفصلنا عن البرّ. من عمقها، ألْقتْ هذه الشراذمُ مسحةَ فيءٍ على الأرجواني والأخضر من النبات. جثَتْ «سور» قرب الماء عند طرف مقدمة العوامة، ولحظةَ التفتُّ لأرى ما كانت تفعله، تغبّشتْ معالم جسدها الخارجية ولم يعد بالإمكان تمييز حركاتها. رأيتُ تاش يخطو نحوها بأناةٍ. كانت شيئاً ما طارئاً وعفوياً، راقصاً في قيعان الأنهر الجافّة، شيئاً ما يجلب له المرءُ الفوانيسَ.

أمامنا، تشظّى الهواء. ثمة شجرة متداعية على الشاطئ القصبيّ، توطّن فيها طائرُ (التّدرج) قبلَ أنْ طارَ وهجَر.

تحت الحفيف والرفيف كانت الزهور البيضاء إكليلاً للصوت. هي الزهور ذاتها التي حفّتْ بالشط الذي غرناه ولا ريب أن بذارها قدِ استغلّتْ طيور المراكب كي تعبر بها إلى الشط المقابل. هبّتْ نسماتُ عبَرَتِ الظلامَ على شكل عبابٍ (**نحوَ**) و(**حَول**) «سور» وكأنها في غرام معها.

وبينما علقتِ العبّارةُ فوق شيء ما فأنزلوا الزلاجة ثم شدّوها بالحبال، خطر لي أن تاش كان ذكياً ما يكفي لانتزاع وعد منها. لأن الوعدَ أمرٌ سهل، لمسةٌ يتبادلها الأولاد. كان للهواء طعم مُرّ، ثمة شيء ما نَتِنٌ وحادٌّ فيه، استقبل أولى خطواتنا على الأرض الزلقة مرة أخرى. نظرتُ إلى ضربات الفرشاة الحمراء التي اجتزناها والتي بدت اختزالاً زاهياً وصارماً للمسافات. كنتُ وعْدَ «سور» الذي جعلنا نعبر المياه العميقة ونجتاز القصب والسبخات. كان الوعدَ الذي فرَشَ أجنحة الملاك الوضّاءة.

خطر لي ذلك الوعد المتوقّد لحظةَ عبرْنا البوابةَ الحمراء لندلف بعدها إلى الغابة.

ألف سوسنة

١

دفعني الهواء إلى البكاء. أفقتُ عند قاعدة جبلٍ. لفَحَ البرد وجهي. نهض تاش وهو بكامل تيقّظه. كان على حقّ حين خطر له وجود أفاعٍ هنا. خرجتُ من حقل الزهر، ثمّ من محيط البيت، ومرّة أخرى رأيتُ الوادي الصغير ينفرش ليطلّ على سهل. كان تاش هادئاً، أمّا أنا فبكيتُ. شيءٌ ما يُشبه الدرع المعدني تجعّد في صدري. بكيتُ ووددتُ لو أعانق تاش.

ظهرَ وهو يقول إن الأحصنة الأرجوانية استنهضته. لم أستطع حماية أحد ودربُ السهلِ سيكون رحباً وسْعَ السماء. كان طريق الذهاب ثلاثين ميلاً، لكن العودة أكثر من أربعين بسبب الوباء. سيعيش تاش حتى يبلغ قرابة الثلاثمائة. الآن وددتُ لو أعانق أد، الذي كان أخي.

تخلخل الأثير. لا بدّ أن أولاداً تسلّقوا جنبة الوادي الصغير المعشوشب. أصوات ألعابهم النارية لعلعت فوقنا وارتدّ صداها على الجبال وراءنا.

تسلّق أدْ جِذْلَ شجرة مستطلِعاً الوجهة التي تميل إليها السماء. بدا صغيراً للغاية هناك. وقد تبيَّن أن الأصوات في الأثير كانت نيران بنادق، كان بوسع أيٍّ منها أن ترديَه عن الجِذْل. لم يكن ليستطيع أن يقي أحداً خطرَ أيّ شيء.

تأمّلتُ الريحَ في ملاطفتها الوادي تحت السماء المكشوفة، بينما أرحتُ كفيَّ على كومةِ تراب، وعشِّ ما تَبارَكَ تحت الأرض، والمكلوم، وما قصمته الشمس، وما بقي في الباطن، كتيماً، عصيّاً عن الوجود. الراحة تبقى راحةً، إن اعتُصرتْ تبقى راحةً، ولا يهم إلى أيّ مدى هي دفينة، تبقى الراحةُ هي الراحة.

وقف أدْ تحت غيمة بخمسة ألوان. كان مزيجاً من عناصرَ وحواسَّ انجدل بعضها في الآخَر. قد كفَّ عن أن يكون بسيطاً مذ كان رضيعاً.

كانت سترة أدْ حمراء والجِذْل بنيّاً كالتربة الخصبة. ابتلَّ النبّاتُ ما حولنا، حتى ليبدو بحيرة أعشاب. وفوق المسحة الندية، عالياً تماهى أدْ بطريقة أو بأخرى في الأشياء البعيدة، كحشرة تُنكش بسكّين جيب، يكاد يكون في خفق ذراعيه، وفي انتفاضه وتشنّجه مثل خيط في شبكة عنكبوت. كان الجوّ مشحوناً بكثافة الزرقة من حوله.

يتقدم تاش، يُلمّ أشياءنا إليه. نقاء الطويّة كما الدوران. أيقن أنه لم يكن باستطاعته أن يحميَ الكلَّ من ظلامٍ مباغِت. وبين لحظة وأخرى، قد تقلّب الريحُ الورقةَ الأكثر اخضراراً لتكشفَ صفحة أخرى تألّقتْ أنسجتُها. كذلك كان تاش يتقدّم، فيومض انتباهي نحوه. فانوس يلمس الأجسام من حوله بلطف، ومع أرض متحرّكة تحت موجة، كان تاش متماسك الداخلِ. لم يعرف الغيرةَ أبداً. وعليَّ أن أتبعه رغم كلّ شيء.

توهّجت بعض طيور التدرج نحاسيةِ اللون بين الأعشاب الطويلة أمامنا بالضبط. شعلة تشقّ الزرع بلمح البصر ثم ترتفع ببطء.

ـ أهناك أشباح؟ قال أدْ وهو يقفز عن الجِذْل راجعاً إلينا، ثم نبسَ بشيء ما عن القلب الأصيل.

ثمّة في كلّ مكان من البيت وَحَوله الحمام الميت الطالع من أكتافنا المثقَلة، وصولاً إلى حقل السوسن، ثم جانب الجبل، ومرّة أخرى، ها هي توَوب إلى أكتافنا ومناقيرها مليئة بالثرى. أردانها الناعمة تنفّخت بنسائم الهواء، نَفَسِ ما قبلَ القبلة.

كنتُ قد شرعتُ بالسير عندما بدأتُ أصغي إلى هفيف أجنحة الفَراش الأحمر من حولنا. رأيتُ تاش يتطلّع في

المدى ويبتسم لنفسه وهو يسير بنا على إيقاع ما امتدّ وطالَ من الطريق.

٢

في الليالي التي سبقت، باتَ ما بقي من الطريق أكثر عماءً. وبعد الخلاص من البحيرة، كصفيرٍ، اجتزنا الغابات الظلماء. كان أدْ قد حوّل نفسه إلى طائر سُمُّنٍ، حتى إن نقلَتَه تشابهت ونقلة الطائر. وكان بوسعي أن أراه ينقر الأشياء التي تمكّن من رؤيتها بشكل باهت. نخّلت الأشجارُ الخاوية غشاوةَ البحيرة، تلَولبَ صوته حولَنا: «غنِّ ومِيلْ، ابْكِ وامسحْ/ غنّ والجانح نائم. لدغة بذرة ـ لدغة ساق ـ لدغة ورقة ـ لدغة شجرة».

انجلت بقية الليلِ عنّا في رفّة جفن ونحن نشقّ طريقنا عبر دغلٍ ناهض. هلِ الظلامُ الذي تستطيع لمسه دامس أكثر من ذاك العصيّ على اللمس؟ كنا أكثر بُعداً داخلَ أو خارجَ البقعة حيث تصبح فيها المشاعل التي نحملها ذات جدوى. بدا أن وهجَها يُقصينا. وكما المعدن، بدّدْنا ضوءَها.

ألقى تاش نظرة خاطفة عليّ لحظةَ هفهفَ السّمُّن. عندما نظرتُ جانباً عقب صوتٍ آخر، تداعتِ الأرض ومضينا في السير على اللاشيء، محض فراغ تلطّخَ بالأسود. مع

ذلك مضينا في السير، مضينا قاصدين وجهةً لا علاقة لنا بها. ثلاث نجمات تواشجَتْ، وقد تخلّت عن الأعلى والأسفل، عن الأمام والوراء، عن الداخل والخارجِ، إذ بات كلّ مكان شطراً غير مرئيّ.

مع ذلك بقي الإحساس بالسقوط، بالاندفاع، بالالتحام معاً، بالإبقاء على القرب من دفء الآخر. وقعنا على أطراف ضوء بَعيدٍ رشرشَ بذارَه القصيّةَ أمامنا، والإيمانَ الصميم، وسط جهاتٍ لا حصر لها، مثل الألياف نصوغ منها شيئاً ما، كثلاثة طيور عمياء.

عندما بلغنا أخيراً هدْب الضوء الصباحي، انتهت الغابات فجأةً، كأنها لم تعد تريد أن تكون مرئية للعيان. وعند أطرافها، سألْنا الحطّابين في الأرز السامق إن كنّا قد أوشكنا على المعبَر. أومأوا وأشاروا إلى الجانب الآخر من الطين.

مستنقع شاسع ترامى أمامنا. نوشك على الطين. الطين المتعفّن الذي خدّدَ أحذيتنا آنَ بدأنا التخويض فيه. حفرة قذَرٍ لا متناهية، سبخة جافة غير مستوية امتدّت حتى الأفق، والآن هريسٌ مُغْثٍ، أبخرة تُزكمُ الأنوفَ تصاعدُ من المستنقع الذي أفلتَ باطنَه الكريه، تاركاً الأماكن الأكثر ظلمةً في أغوارها، كرضوض الضلوع. في داخلها ابتُلعتْ كلّ الجنبات، كما اسوداد أوراق الشجر، وكثير الروث

يمصّ أرجلَنا بشيء من العناد، شيء من الإحكام. لا توقّفَ وسطَ ذلك البخار الذي ضبَّبَ الهواء ما بيننا، فنستمرُّ بالتقدّم كي لا نعلَق ونغوصَ وننهار بلا رحمة. ندا الجو برائحة كرائحة الكحول وخفتْ حرارة الشمس فدلقَتْ نفسها لتمتزج بالرطوبة المتصاعدة.

كنّا الأجسامَ المصبوبةَ خلال مسيرِنا في الحرّ الذي لازمنا، في سعْيِنا للعبور على وقع إحساسنا بالحركة، وفي تنفّسنا محاذرين ألا نعبَّ كلَّ ذلك الطين، نرفع ركَبَنا ونخوّض ليس للأمام بل عبْرَ الوحل، يتحلّل مجرانا ويتهتّك بالانعطافات، كنّا سنغوص في الغَرِين ونفرغ رئاتنا، ليؤول لونُ دواخلنا بنيّاً أيضاً، فقد استمر ذلك القيظ المقرّح أكثر مما تخيَّلْنا.

سمعنا وقع القطرات، واحدة، ثلاثاً، ثقيلةً؛ مصابيح من ماء. أتسقَّطُها من حولي، غاب وقعُها لوهلة في ريح طفيفة عَلَتْ كي تَذهَلَ في أطواق مُحْكَمة. استشعرتُ هَبَّةً في الجهة الوحشية من يدي اليسرى، رشقة باردة دغدغتْ أطراف وجنتيّ وذقني. لفْح لمسةٍ انسدلت نحو الأسفل، امتدتْ من علامات تنقيط، وتكثّفت من فرقعة لتوحّد الإيقاعات التي ارتدّت من جديد إلى ملاءات كانت حوافّها كتيمةَ الصوت، ثم لتُحللَ السديم إلى لألأةٍ متموّجة.

معطف تَلَبَّسه رفيقُ دربِنا البردُ. مطر وجيز استحضرَ الشواش. كلّ القَطْرِ، كلّ العثرات. جداول تُمرّرُ الجذورَ عبر طبقة قديمة واسعة تنقّعتْ حول أقدامنا في ثوانٍ. ثمة صعوبة بلوغ أي مكان بوجود هذا الاتعكاس الكثيف. أنّى لنا أن نتبيّن الطريق ونحن وسط انحسار كثيف تطرف له العين. أطلنا أمد الكلمات ما بيننا. والجذور ضاربةٌ في الطين، ماذا تُرانا كنّا؟

بدأ السطح المحفَّر يميد تحت المطر. زركشة حيّةٌ تمعّجتْ تحت كواحلنا مثل سويقاتٍ سوداء نبتت وتلهّفتْ للهواء. كلّ ما اتخذ شكلَ زلّةٍ انتهى بفمٍ فاغر. وكما شهدنا، أصبح امتداد الطين حقلاً من الأفاعي. رفع أدْ رأسه محدّقاً في الرماديِّ فوقَنا كمن يحسب أن السماء تهطل بالمطر. كان حَدُّ التقاء الرماديّ بالبنّيّ راعشاً مخضرّاً، وأحياناً كاد أن يكون ذهبياً. تاش، متّزناً وكأنه لم يكن يتحرّك، بدأ يخبط الأرض حولنا ضمن دائرة، يسحق الأفاعي إلى فتات ناعم أو يهتّكها تحت قدميه إلى قطع آيلة للتبدّد. لم نُباغتْ بينما ترسم حركاته المتأنّية مداراً حول تقدّمنا الوئيد.

كيف أصبحتُ شقراء. في ذهني لوحة مصغّرة لا يتوقّف طنينها. نظرة الثعلب المتصالبة، رائحة غبار الطلع، تتمايل في لوحة رُسمت بقلم الشمع وتأطّرتْ بضوء منعكس، ضوءٍ مُورق مكشوف، مع ذلك كنا قلاعاً سيّارةً

تخوض في الوحل. تاش وقلبه الفيّاض كسيا الأرض بالأفاعي وهما يضعان الأساس الثابت لإكمال مسيرنا. أدْ وأنا، هشّان ومُحمرّان في بؤرة انسحاقه الكئيب، تقدّمنا ملطّخَين بالبنيّ، مُشرفَين في النهاية على الوميض.

كيف سيكون الأمر، لو استقمنا متوازنَين على طوّالاتِ أقدامٍ من أفاعٍ؟ فمن أين للوُريقة الخفيفة أن تُقتلَع؟ ومتى تصير دثاراً؟

حين يؤول كلّ ما يتقطّرُ شعاعاً.

لم يتوقف المطر، استمر بالهطول. كنتُ لُطخةَ شيء ما ينجرّ بقوّة نحو شعاع ضوئي في كوكبتنا متعثّرةِ الخطوِ. مسافة طائرة ورقية من رؤوس أصابع أد المتحمّسة على مرفقي. لمسة انتفخت، أي علَتْ شيئاً ما. ثمّة تيار من ضباب خفيف انسدلَ غلائلَ فوق التموّجات. تتبّع تاش التخوم، والسواتر الترابية، فسوّرَنا داخلها. غاصت العوارض الخشبية في الوحل، استطالت سوق النبات لكنها لم ترتقِ قطُّ إلى أشجار، تشعّبت لمجردِ أن نكون كالمتاريس.

ثمة شحنة حرٍّ في الحيّز المغشى حولنا أزهرتِ المدى مكلّلاً بالضوء. متمدّداً ومتشعّباً، جاهزاً للتبرعم، نزّ الدفء من عمودي الفقري ودفّتي كتفي، وغذّتْ وظيفة

الجذع بأجنحة مهولة. ومساحات، وسط المساحات التي تطعّمت بالرصاص، لونتْ تُويجات الزجاج، ومشعشعةً تُشرق، وترتعش.

ثم، على حين غرّة، طغتْ أجنحتي على كلّ شيء. طوّعتْ جسدي الحرارةُ، انتثرتْ في الخارج، وفتحتُ أضلعي، موسّعةً ما بينها، جزءاً بعد جزء، حتى الساقين. برتقاليّاً ومصهوراً، نحُلَ جسدي في وسطه حتى كاد ينفرط إلى قطيرات. رأيتُني لوحةَ طين، انطباعةَ ضوء فوق الطين المليء بالأفاعي إذ تملأ جسدي بهذا الطين، أُصبحُ شقراء في الخلية الدافئة العذبة التي صنعها تاش من أجلنا في المستنقع. لم نكن نمشي، كنتُ أتطاول باتجاه حافات الطين.

أبقتنا حرارة ذلك النماء راضين، ومفعمين بالحياة. كي نحتفظ بالحرارة معسَّلة، زاهين مفعمين بالخصوبة، ما بين النواجز، كي نرى بواسطته الأفاعي وهي الآن مجرّد عيدان يابسة، حجبتِ الأَسْدِيَةَ، وتورّمت كسراتها المسحوقة إلى درنات. حينها أدركتُ أنني أعاني نوعاً من الحمى، ذلك أن لمسة تاش كانت تعني ذلك، وكانت اللمسة علَيَّ، رقاقةً ضغطت على جسم كي تصوغَ جلداً جديداً لها، فتمنح شمساً للجلد.

كان انعكاسُ قوس قزح على سطوح الحصى الضوءَ الذي انعكسَ عن الأجنحة المنفرشة للحمّى. رأيتُ ثمّة

نوافذَ في الطين. وفي التطواف، أغوتني أعماقها الشفيفة إليها. مع ذلك، فإن أصول رؤوس أصابع أدْ قد انحفرت عميقاً في ذراعي وكتفي، راسخةً. أو لعلّ الأمر برمّته كان مجرّدَ مسيرٍ عسير. كانت ساقاي المرتعشتان هما الستائر التي تتهادى من النوافذِ على سطح المستنقع. مجرّد ماء، مجرد سُمٍّ شحيح، أن ترى ذلك. انطقْه تُصدّقْه. حاولتُ دسَّ أصابعي بين حرف الباب وإطاره. كلّ شيء انفتح للأعلى. بين أرضٍ صميمةٍ وصورةٍ جالت في البال.

شِراكٌ فوق شقشقة الضوء الذي تفتّحَ في أعالي نومٍ حميم. حناجر فوق ألسنة، خَتْم أبواقٍ حتى لتنقضّ مئاتٌ من مخالب الطير تحاول اختطاف أغنياتِها من الحناجر. رفَعَني تاش فأدركتُ أنني كنتُ شاسعةً وممتدةً في الأرض الرطبة. تطلّعتُ إلى الأعلى ومرّة أخرى تحسستُ أجنحتي. بقي أد في الجوار. كنا نتحدّث. كنا نمشي. رأيتُ كرسياً خشبياً ناهضاً في الطين. سعير اللمسةِ برعمٌ. كرسي خشبي هو بطريقة ما في وسط الطين، والحمّى تلفّه من كلّ حدب وصوب.

تغمر الجذورُ التربةَ اللينة، فإلى أين نحن ذاهبون؟ شعرتُ فجأةً بالجوع. بعينين هلاميتين، ظننتني رأيتُ وميض شجرة تين حيث كانت الكرسي. هنا وريقات لا يدانيها الريب. شجرة تين وحيدة في منتصفِ القليلِ جداً من كلّ شيء. تلألأتْ في المدى المخضلّ. لم يكن موسم التين قد حان بعد، والأوراق تحيط بها رفرفت وحسب. الطقس رطب وحار، ضقتُ بصمتِ الشجرة المتنامي، تكتّمها الأكثر طراوة من أن ترشح. التينة، قال أدْ: تكاد التينة أن تكون فوق رؤوسنا، كبيرة للغاية، وحيث إنّنا تورّطنا في الأمر، أكملنا المسير.

بلغْنا ما وراءها، هناك انتصب ثور مربوط إليها. حلَّ تاش رباطه بهدوء. ثور السُّخْرة. ثبّت أنظاره بجذع الشجرة ولم يتزحزح. كان منسجماً مع تكوينه، بنيّ وبطيء الحركة. الهواء مشبعٌ بالرحيق. كان الثور معنا، جموده يبتلع جناحيَّ وانطلاقَهما. شعرتُ بـ أد يستند عليّ. وحين أحسستُ بانقباض صدري، سمعتُ أدْ يقول: والآن ستدعوك الحاجة إلى روحك. تزحزح تاش قليلاً، مثل قطعة كبيرة من شيء متدحرج ما، رائقٍ كالسماء، وبدأ يمشي باتجاه الثور. دون أن يوليه التفاتاً، تقدم نحوه بصمت. لحظةَ انتبهتُ إلى أنه يصبح أقربَ إليه، بدأ الثور يبتعد. ليس بسرعة، لكن بالقدر الذي يستغرقه حجر حتى يصبح أملس. ليس بشكل مفاجئ، بل مُبعداً نفسه عن

تاش. خفَّ ثِقَلُ أدْ عنّي ونظرتُ إلى تاش حيث وقف في المكان الذي تركه الثور. قلتُ في سرّي: إني أتنفس.

ثم وقع تاش. وقع بعد تحويل الثور إلى أخضرَ، وقَعَ. شيء ما ليس على ما يرام. تقاطعت عنقه الزرقاء مع كتلة طينية سوداء برزت في الجو الشفيف. ثم لتبقى في الطين الجديد. لن يقسو تاش ولن يلين. كانت أوراق التين فوقنا مخضلّة. لم يكن المكانَ الأمثل بالنسبة إليه كي ينضج. عبرناه، استدعيناه من قشرة بذرةٍ ارتمى فيها. لكن تاش بقي هامداً ويرمش بعينيه. ليس من شيء عادي يمكن أن يرفعَه إلى أعلى. لا بد أن من أتاه كان صغيراً ذا قوة خفية، أحداً لا يمكن لشيء سيئ أن يمسّ عظامه وجلده. فقط وداعة كهذه يمكنها رفْعه، وكأنه سقف بيت العائلة.

في الظلّ المحتدم. تعلو نافورة رمادية بالقرب منّا تشيلُ سماءً عاصفة خضراء. تاش تحتها، قرب حافة القرص الأسود المنكسر المقتطَع من الضوء المتلوّي. كما في نهارات كهذه حين يحوم القلب فلا هو يعلو ولا هو يقع، هكذا حامتْ كلّ الأشياء المجنحة، فليس منها ما يحلّق وليس منها ما يهوي. سمعتُ جلبةَ أجنحتها، كما صوت الماء. الصوتُ بكليّته أغنية. أرخيتُ شَعري وفضضتُ مجازاتِ السماء. كان خفقها العابر في صحائف، مثل نسيجٍ موشّى من ومضٍ تبدّى عبْرَ تاجِ الشجرة الكبيرة.

وما بين الجدائل المضببة والبقع مرّتِ الملائكة بالشجرة وعرّتها من وريقاتها التي شكلت هالات من الأيدي المتوسّلة.

من ورائها تداعى الضوء الكئيب علينا، باحثاً عن شيء ما يستنبته. أصاب رأس أدْ. كانت الطريقة الوحيدة لتشكيل زهرة في طينٍ بلا بذار هي أن تشعل ناراً. نار في الطين تكون عوناً لـ تاش. نار في رأس أدْ. الجذور التي كانت ساقَي أدْ. الجذع الذي كان عموده الفقري. والزهرة التي كانت رأسه مثل مشعل تأججت بأقصى طاقتها فوق الوحل. وريقات كلامٍ يابسة تلوّتْ إلى ألسنة لهب. ترك أدْ الضوءَ ينثال عن جذعه ليملأ وريقاته وجذوره فأصبح هشاً ويابساً. قصفَ كسراتٍ منه لإذكاء النار، ململماً إياها على شكل كومة. نحل أحمر بدأ يتجمع حوله حتى أصبح سربُه لسانَ لهب.

شبّت ذؤابات النار متلاحمةً، واحدة الاتجاه. زهرة تركت كلَّ شيء يمرّ من خلالها. أغنية ترددت عبْرَ البتلات، دانية، تُعيد إنشاد النار عن طريق الدخان. ما جلبته الغيوم، متدحرجاً نحونا، كان ابنةَ صوتٍ. يداها تنزّلتا من سحابة دخان فوق النار فأحاطتا تاش. استطعتُ أن أسمعها. رفعتْ تاش وأدخلته السحابة. تألّقَ أدْ تحت ما كان يُسمى شجرة التين. لم أستطع أن أتبيّن إلا طائراً يعبر في المدى البعيد. ومرة أخرى كانت هناك تُوَسَّدُ

صيغةَ تاش الهامدةَ إلى التشكيل ذاته الذي أُرغم عليه في الطين. تناولتِ ابنةُ الصوتِ جمرةً متوهجة من النار ووضعتها بين شفتَي تاش. وعلى حين غرة انفرطتْ ألسنة اللهب إلى نحلٍ أحمر مرة أخرى.

كان تاش متيقظاً، وكل البوابات قد انفتحت. وحين استدرنا، استطعنا التأكد من أن سياج الغابة أمامنا. كانت الغشاوة التي حجبته قد انزاحت عن جُلِّ أطرافه.

تبدد أدْ في الجرف الأخضر، والطيور الكبيرة التي لم تكن أكثر من صور ظليّةٍ قاتمة فرّت عن سفحه. تاش هو الآخر، توارى أمامنا بين الأشجار. أما أنا فنكصتُ لوهلة، لأستوعبَ ارتفاعه وشبكة دواخله الكثيفة. سيتعيّن علينا دخوله وتسلّق مرتفعه الذي امتدّ في القمة. سيكون الأمرُ كمن يُجري مشطاً في نومٍ رطبٍ ظليم، برج أخضر بلا منافذ حفلَ بالألياف الزاهية. كان بوسعي سماع نداء أدْ يرتدّ إليَّ. أعدتُ ربْطَ شعري، غطيتُه بمنديل أبيض، أدليتُ رأسي، وتوغلتُ في الأدغال.

٤

لم أستطع تبيّن تاش، لكن «أد» كان في المقدمة، متألقاً في الظل على غير العادة. ولتمرّسي بالاختباء، أصغيتُ إلى أزيز يأتي عبر المعبَر. خشخشة مكتومة بين ثنياتٍ

تعلو دهاليز طويلة مغطاة تفوح بالعطر وتتجدل صاعدة سفح السلسلة الجبلية. لكن لم يكن ثمة ما هو ناءٍ ههنا، فبوسعي أن أرى تاش الآن، أو بالأحرى أن ألحظَ بين الفينة والأخرى قوامه الأسود يتحرك للأمام. لم يكن هناك سوى انتظام الأنفاس، حاضر الآن هنا، في الجهة اليمنى من صدري. وسط الأزهار والكروم والجداول التي يتصل كلّ منها بالآخر، استغلقَ العالم الساكن على نفسه بإحكام، أتنفس من خلال «أدْ» وهو يقفز بخفة فوق فجوات الأرض، يستهلك الهواء النقي الشحيح، كان شبحه الهزيل يخلف صفيره وراءه متلوّياً أمامي كالفتيل، كسلّم إيقاعٍ ضمَّ كلَّ ما قد صفره وصفرَ من خلاله، وكان كلّ ما دونَه جدائل من دخان. ناورتُ لكي أعبره فأصل إلى تاش.

كانت الغابة جسراً أخضر أثناء ارتقائنا. أمطرتْ رذاذاً بين الأشجار فوقنا ثم على شكل ملاءات انطرحتْ على الجبال. لكن ذلك كان محض إحساس. ومع دُنوّي من تاش، رأيته يضع شيئاً ما في فمه، يلوكُه، ثم يبصقه على أيكة دوالٍ صفراء الزهر قرب قدميه. لوهلة لاحت لي مثل حرباء.

تذمّر «أدْ» من الأمطار وتقلّب الطقس. يأخذ شهيقاً. كيف هطلت فوقنا بشكل غير مباشر، مُحلّاةً بالأوراق. نسمع خرير المياه فوق الصخور التي مسّها طائر بين

الأغصان الداكنة. كلّ ذلك مجرد طحالب الآن. بات الطريق أكثر عسراً وقد أوشكنا على نهايات دروب متشابكة لا يمكن المضيّ فيها. نلتمّ في أماكن مظلّلة تغلّقتْ بالهواء الساكن والندى ما دون الشفيف، حِلية تكتسي بلونِ ما يجاورها. نظرتُ إلى درع سلحفاة ضخمة ورداً على ذلك ترقرقت البركة. حضن تاش كتلَ النبات التي أعاقت طريقنا، ملْء الأذرع من عرائش الكروم ورميم الأغصان. فصّلَ وصلات الطرق الفرعية والمعابر الفسيحة. تصاعد البخار من كلّ جسم ضارب إلى البنيّ كان قد انكشف أمامناً، ودلق حشراتٍ سوداء ستلوذ بملجإٍ آخر. ناورَ تاش وأزال ما يعيق الطريق، ليجد بيسْرٍ منفذاً لنا جميعاً. يُطلق زفيراً. التفتُّ إلى جانبي لأرى طائرَ طوقان ذا منقار خفيف الزرقة يجثم فوق غصن منخفض. لم أكن كذلك. توضّعَ كلّ أخضر فوق آخر فوق أخضر آخر فوق المزيد. مرتبة بحسب الفئة - واحد، اثنان، ثلاثة خضراء متباينة الدرجة - الحواشي سالتْ معاً بكلّ ما أوتيتْ من الخضرة، بكلّ النماء. اندلق الماء من وعاء الريّ الشمسي فنضحناه.

الماء المتساقط، الأبيض في ديمومته، بدا أنه ماضٍ في التساقط. شققنا طريقنا بمحاذاة المسارات الجبلية الخضراء الرطبة وبين جنباته. غمرَ أدْ راحته في الماء حتى امتلأت ورشق وجهه. «انظروا، وحيدات القرن.»

قال وهو يشير إلى سبلات من الأزهار البيضاء ترتفع مثل القرون في ضباب الماء قرب تاش. تاش الذي تابع الارتقاء دون أن ينظر إليها، لعلّه ينوء تحت ثقل المنحدر الجبليّ على كتفيه، يعتله بأكمله. «هل سنمضي أبعد من ذلك بكثير؟» تساءلتُ، وأنا أستنشق الهواء قرب كاحله على سبيل التخفيف من حدة الحالة. لم يبالِ تاش بجلمود الصخر.

سرعان ما تحولت الدروب إلى سطوح صخرية تزداد حدّة انحدارها. تهادى الأخضر فوقنا، شمخ كندٌ لنا، طوّقنا بإحكام رغم أنه راسخ في الأسفل. رنونا إلى قمة من أوراق وصخور تخللتْها أشعة ضوء. انتصبنا بشكل كاد يكون عمودياً، أدْ وتاش على قدميهما يتبعان أثر قدميّ وعصاي عبر الرذاذ المتساقط وجحافل البعوض التي تطير قرب الصخرة. كان من الصعب أن يقدّر المرء المسافةَ التي قطعناها صاعدين، لكن ونحن نرتقي مضيق الصخرة، كنا كلما قاربْنا الضوءَ في الأعلى أكثر، كلما خبا أكثر. تكرّسَ السأم من تكثيف الانتباه والتوازن الآن، لكن بدا لنا، ونحن نقترب من موضع يمكن فيه الشعور بمضيّ النهار، أن النهار قد قصرَ. مع ذلك، حتى بعد حينٍ رافقَنا الإحساس بكتلة زمن صماء وحيدة على جانب الجرف حتى تمام اللحظة التي لُفِظنا بها إلى صخور المعبر الجبلي العارية مع حلول الغسق. كان

النهار الشبيه بذيل السنونو قد حطّ وحيداً، من دوننا، على ظلال المعبر الخشنة النقية.

مثل أزهار القرع الذي امتدّ بضع أقدام من أعالي الغابة، كنا متطفلين هنا، ولن يتسنى لنا التحكم في ذلك. تركنا للهواء الرخيّ أن يمرّ فوقنا. لم نتابع السير ذلك اليوم، بل توقفنا لنمضي الليل، لا أكثر. كان مخيمنا بسيطاً. عششنا في مأوًى تشكّلَ من صخرة كبيرة ناتئة. الأرز المغلي مع الفاصولياء الحمراء هو طبق الثعالب المفضل. مال أدْ للأمام ومسَّ وجهي. كانت الحمى التي أصابتني في طور التراجع، هدهدني صوت الهواء فوق الصخور، وأصبح بإمكاني الخلود للراحة. ارتفع جسد تاش وهبط ببطء تحت رؤوس أصابعي. قال أدْ إننا كنا أزهاراً، نتشبث في أرضٍ صدعٍ ثم نزهر.

٥

انقضى جلّ النهار التالي بالخوض في المعبر. ولم تعد الأرض الوعرة صالحة للسير البطيء إلى أن بلغنا بداية المنحدر العشبيّ قرابةَ منتصف الظهيرة. غير أن السماء كانت فسيحةً وكنا لم نزل مفعمين بالروح العالية عندما وقعت أنظارنا على البيت في الأسفل.

كانت السلسلةُ القصيّة للوادي الذي أرسلْنا أبصارنا عبره حافّةَ امتداد أزرق يزحف صاعداً باتجاه المدى الرمادي.

وحين أخفضنا أبصارنا إلى مسافة أقرب، بدت مكللةً باخضرار العشب الطويل الذي نما نضيراً مع بلوغه السهل واشتبك بالأشجار التي لاحت من مرتَفَعِنا مثل انفجارات آلاف العناصر الخضراء الأكثر قتامة. استمر هذا العشب الأخضر في تكاثفه إلى جهتنا من الوادي، وإن بات أكثر تفرُّقاً، ليجعل البقاع المكشوفة في الأرض البنية القاتمة أكثر لفتاً للنظر، على نحو ما أكثر جاذبية لنا. ولحظةَ نزلنا عن صخرة المعبر داخلين هذا الامتداد البنيّ الغنيّ، رأينا البيت الأصفر وبدأنا السير إلى حيث استطعنا، حتى عن بُعد، رؤية ما كان الجمالَ المكتمل بكلّ حدائقه.

ومن أناقة وبساطة المنزل الأصفر، أن حقلاً فسيحاً من الأزهار الزرقاء أو الأرجوانية كان يحيط به، بالإضافة إلى باحة تحتوي تشكيلاً حجرياً صغيراً لكنه عالٍ في وسطها. انحدرنا بين الأعشاب الطويلة صوب البيت، ذاك البيت الذي يعود لأحد ما. وإلى الأمام قليلاً ثمة أرض مغطاة. شعشع الوادي بحرارة متواصلة غير أن أحوال الريح كانت تحدّ منها باستمرار في الاتجاه الذي سلكناه إلى حقل الأزهار. كان سوسناً، ما يقارب الألف سوسنة، كما يمكن أن نرى الآن.

كان تاش متيقظاً، حفلَ الجو بصفير السهام. هل هناك أشباح؟ تساءلتُ، وشعرتُ فجأةً بأني تحت الخطر. أردتُ

الاختباء في ظلال تاش. كان تاش شارة رتبة الـ V، كان عارضةً خشبية. يمكن لـ تاش أن يكون عموداً للإرشاد إلى الاتجاه. مشى تحت شيء ما قاصداً شيئاً ما وسط السوسنات. هناك جسدا طفلين، بنت في السابعة أو الثامنة وصبي في الرابعة، تمدّدا ميّتَين بين سويقات الأزهار. كانا قد قتلا حديثاً، منذ دقائق، ساعة أو ساعتين على الأكثر. مع ذلك لا يزال السكون مخيماً الآن. بدا أنهما عالقان بالسوسن بشكل غير قابل للانفكاك، الشَّعر منتصب كشعيرات الفرشاة. «هجوع الأصول،» كما قال أدْ فيما بعد.

نقَّلَ تاش جرمه فمادَ الجبل. كنا نطوف بهدوء حول البيت. وصلنا فناءَه الجانبيّ. كلّ شيء هنا كان حاراً بفعل الشمس. كان التشكيل الذي استقرّ في الفناء ملاكاً حجرياً صغيراً. جثم فوق نافورة، كما نرى الآن. انحنيتُ لألتقط كوز ذرة تبيّن أنه موزة نقرتها الطيور بخشونة، فوجدتُ جثة رجل. كانت حنجرته هو الآخر قد اقتُطعتْ. استلقى بين الملاك وبين شجرة البوغنفيليا (الجهنمية) المتسلقة التي أحاطت بالفناء. لا بد أن نوعاً من القتال قد وقع، فقميصه ممزّق ووجهه يحفل بالخدوش. لوهلة بدا الملاك الحجري طيراً جارحاً يمدّ مخالبه، قبل أن تُحْيي الشمسُ والصوت والماء فيه الصمتَ الحميم لوجود مستتر. قد ذهب الجميع، على نحو ما كنا موقنين بذلك. وتحت جناحي الملاك، وحده السكون قد أزهر. قطّا ع

الطرق، أو فلتكن صفتهم ما تكون، كانوا ظلّ غمامةٍ تَظلم ببطء ثم تعبر. لم نزل عاجزين عن وعي ما حدث.

ثم وجدناها. نادانا تاش كي نصعد إلى الطابق الثاني من المنزل. كان قد صار في الداخل وكان صوته قد كُتم. على الأرضية الخشبية عسلية اللون لغرفة مفتوحة، استلقت ساكنةً في ضوء النافذة الكبيرة، التي فُتحتْ فندتْ ريحُها بصفير السهام التي سمعناها قبل قليل. كانت حزينة الجمال. أسبغتْ عليها شمسُ الظهيرة جناحي فراشة.

بالكاد أخذوا غرضاً ما. فكل شيء كان في موضعه إلى درجة غريبة. لم تكن هناك من طريقة يتكهّن المرء من خلالها بنوع الترتيب الذي قُتلتْ به العائلة. كانوا مجتمعين، سعداء، حتى الآن. بطريقة ما بقوا أعلى من ميتاتهم. نعي ذلك الآن. فرَّ القتلة مذعورين لتلك السعادة. حلّتْ عليهم اللعنة الأبدية وما قبضوا سوى الريح. كانت سكاكينهم قد جرّحتِ الطيور وألقتها في الطين.

دفنّا الجثث الأربع معاً أمام المنزل قبيل الغروب. أكلنا درّاقاً ولفائف بذور خشخاش وجدناها في المطبخ. تاش وأنا نمنا في حقل السوسن. أراد أد البقاء على مقربة من القبور خلال الليل. غادرناه وهو يغني لها بلطف. وفيما استلقينا وسط سويقات السوسن، تدفقت أغنية أدْ باتجاهنا نائيةً واهنة. نمنا دون خوف، فقد وقع العنف في

هذا المكان وانقضى. تركت شمعة مشتعلة قرب نافذة الطابق الثاني حيث وجدنا المرأة. اكتست الشعلةُ بأغطية من الظلال كي تُشيحَ البرد. التفتُّ نحو الحقل، وبينما داعب الكرى أجفاني أحسستُ بدفء تاش قربي ورأيتُ كيف جعل النسيمُ بتلات السوسن ترتعش. أطبقت عينيّ، وسقط من السماء ألفُ شعاع ضوء ازدان ريشُه بغبش المغيب.

النافذة المظلمة

١

تدوم أشياء وتنزلق أخرى. كان بيتن ينزلق. ينزلق الآن نحو الماضي. على بعد خطوات خمس من مكانه عند مدخل الباب، تمسك «سور» بيد بيتن، ينظر «أد» خارج النافذة. كان «أد» متوتراً ومتعباً لأن آخرين يحيطون به. يندُّ صوتٌ أول بنعومة، يوشك بيتن أن يقول شيئاً. يلتقطه صوت ثان فيحتويه، صوت «سور». وبيدٍ خفيفة كفراشة ردّتْ شعرَه عن وجهه، لحظةَ آل إلى التلاشي.

منذ أسبوع، من خلال النافذة المظلمة، في غرفة كلّلتها الظلال، بقي «أد» على ما هو عليه في الغالب، و«بيتن» لا يزال يدور في المكان، ويتحدث، ويسعل، ثم يدور. وكنت أقف على بُعْد تسعٍ من الخطوات الخمس الأخرى الفاصلة، تحت الإفريز العريض حيث استطعتُ أن أراهم وأن أسمعهم. قال بيتن، «لا يبدو الأمر على ما يرام وبالتحديد حين يكتشف المرء بأن شخصاً ما هو وحش، أليس كذلك؟».

في الصباح الذي استيقظنا فيه والسوسن يحيط بنا، سمعنا فرقعة الهواء، كما ألعاب نارية، كوعيد من الأولاد،

وحان وقت المسير، وبدْءُ عبور الوادي. تصاعد الدخان كلطخة من مرتفَعٍ قريب، لكنه، إذ يبدد نفسه، سرعان ما يصبح شيئاً من الماضي.

مثل بُريكاتٍ صغيرة بين التلال، وما بين الوديان الصغيرة هنا وهناك، ثمة قرية، تليها قرية أخرى، وصلنا إلى هنا. وحدها بقع القرنفل البريّ على منحدَر التلّ ما أرشدنا إلى حيث يجب أن نتوقف. ثم ها نحن هنا، وبيتن يطوّق «أد» و«سور».

٢

تحدثوا بهدوء في الغرفة، لكن كان لـ بيتن الشطر الأكبر من الحديث. قال، «الآن كل ساعةٍ هدهدةٌ، الشرانق على وجه الخصوص هي الأكثر استهدافاً بالنسبة لجائع. لن يمدح أحد محاولاتك للّاصيرورة، وعليك أن تنتبه لئلا تبدو كمن روى عطشه. كان الأمر مفرطاً في استعراضيّته، تلك المشكلة التي يجب عليك أن تحلّها فيما يصير ضميرُ الـ me المفعولُ به ضميرَ فاعلٍ I».

لم يرغب أحد في البقاء في هذه القرية بسبب جائحة النيران. كان يمكن سماع نحيب المحترقين في الداخل قرب المستوصف، قد أصبح أسوأ فيما بدؤوا بالارتجاف والاختلاج. تحولت الأورام إلى قرحات، سيبدو أحدهم،

عارياً تقريباً، بقدمين كلّلتهما الأغشية، مستميتاً كي لا يصير أحمر اللون. رفعوا أنظارهم إلى تمثال قاتلهم لعله ينقذهم. كان قد فقد ذراعاً في عاصفة. وبقيت «سور» تتنشق الرائحة بينهم، وتجلس إلى جانب أسرّتهم النقالة. كانت تحبّذ بقاءنا هناك.

حين توقف الصفير في أنفاس بيتن، كان ساكناً. مضى، غير أن المسير طويل إلى حيث يمضي، يسعى وراء إيقاعه في الظلام الآن، إيقاع ألا يكون هنا، كما إيقاع أن يوغل، ثلاثاً إثر ثلاث: ضربة لأعلى، ضربة لأسفل، دخول وتصالب في وضع الـ t.. يشبه بيتن الماءَ المنحدِر عن سطح الأشياء.

قال بيتن، «من المهم أحياناً معرفة الحيوان الذي يكون امرؤ ما موضوعَ شبهته، حتى لو كان ذلك المرء عميّاً عن الحقيقة». رمق كلاهما النافذة التي كنتُ خارجها بنظرة خاطفة. «اشكروا إيليفيو. فقد شالَ حملاً ثقيلاً عن كاهلكم. كان البارّوس أبداً حلفاء لنا، حتى دون أن يدركوا ذلك».

ما يقوله الآخرون هو أيضاً أمرٌ لك أن تتبناه. استطرد بيتن، «المعرفة هي أدنى درجات الراحة على الإطلاق، إذ إنّ المعرفة بالتحديد هي ما يجعلك وحشاً، لو لم أعش كلّ ذلك بنفسي، لما كنت جلفاً كحاليَ، الآن، هنا، معكم. أن تكون أكثر من شيء واحد في الوقت ذاته فذلك ما

سيكون اسماً، كما عادة التنفس. إنك ضوء غير مباشر. أو، ببساطة: يكمن الرعب في اليقين المطبق، الوثوق الأعمى بأنه في حين يمكنك تغيير الحالة أو المادة، وفي حين يمكنك أن تكون حالماً أو مستيقظاً، فستستمر بالعيش إلى الأبد في ضوء أفعالك كلّها. أنت وأنا سيرورات، إننا إيمان يتجه إلى أكل نفسه، بينما الحيوانات هي لافتات تخفق فوق منبسَط، مكوّناتُ موجة. لم تعد الظروف تحمينا بعد اليوم، وكلنا، كلنا في عوَز».

٣

استدرتُ وابتعدتُ عن تلك النافذة خمسين خطوة، وكانوا هناك، كلّ منهم قد أُوثِقَ إلى الآخر، يتلاطمون فيما بينهم، تاركين ارتباك حاجاتهم، ورغباتهم، وشهواتهم في كل مكان لشخص ما يعتلها. ومن حين لآخر يتخذون مظهر المتعنّتين، لكن العابرين، غير المقيمين هنا. ولا يزالون ملتمّين كبتلات متداخلة، كزهرة وجَع. هم متيّمون بالنار. كم عليّ أن أخطو من خطوات بعد الآن كي أنهار؟

لفّه الغرباء بملاءة. تاركين الوقت يتقدمهم، لأن «سور» لن تفارقه حتى يصبح تحت التراب. لحق بهم «أدْ» ليتمشى في الداخل أكثر مما فعل في الخارج. قال بيتن، «إن تركتُ يديّ في مكان ما، فلن تلبثا طويلاً قبل أن تموتا. إنها السنّ المتقدّمة كهذه، كما اسوداد لحاء أغصان،

تقوّسها، على الاحمرار المفرط لبراعم الغطاء. بهذه الطريقة تُحمَلان، تُدفعان حول الخدر أو فيه تماماً، وأبداً قبل أن أعي الأمر». عبرتْ «سور» بسرعة، كما لو أنها لم ترني.

عجزت «سور» عن النوم. قد يكون السبب الحساء مع الفطائر الذي تناولناه. لم يمس «أد» البطة المحمّرة. وجدت فراشة ضخمة طريقها إلى غرفتنا في وقت متأخر، بأجنحة مرقّطة تشبه عيون البوم اللامعة. أقلقتها الظلمة وكانت مضطربة في الهواء. أشعلت «سور» شمعة وكلّمتها. غنت لها. عشش الهمس في صدَفة الصباح/ التي ملأت الوريقات الصدفية فجعلتها أصدافاً من ندى/ تطفح باللون الخمري، تسفع صدَفة/ خطوط السماء الداخلية مثل حفيف الطيور الكتيم/ المسموع خلف الاخضرار، المقيم في الظلال الرطيبة.

بدأ الصباح مع صوت عصافير تنفض الجليد عن أجنحتها، وحلَّ النهار سريعاً، كثيفاً وثقيلاً. ألقت الأغصان في الخارج ظلالها على «سور» حيث أوت إلى الملاءة.

كم مضى علينا هنا؟

«أصبحت ضعيفاً، بمئة مفصل معطوب،» قال بيتن.
«سأروحُ في نوم عميق الآن. دعوني أقلْ هذا قبل أن يُفتح الباب. ذاك الذي سيأتي لقتلكم هو نقطة عمياء داخلكم». أطرق أدْ بينما استطرد بيتن، «تذكروا: أن تباركوا يعني أن تجرحوا. يمكنكم أن تحظوا بهذا المختبَأ إن أردتم». كان على بيتن أن يعبرَ سجادة من زهور التيكومة الصفراء ليصل إلى درج يحوي مفتاحاً.
«الشخص الآتي لقتلكم سيكون قد تربى في قفير نحلٍ فوق هلام اليقينِ الحلو. سيحرص على أن ينشر ضوءاً. وسيحيد عنه كلُّ ما من شأنه أن يحسّ وينمو في العالم».

تدسّ امرأةٌ شيئاً من النقود المعدنية في آلة لتحظى بنظرة إلى دجاجة ذات فراء. من الممكن أن يكون المرضُ في الهواء، لولا أن القرية كانت قفيراً، وكان طنينها مليئاً بأشياء جاءتْ من النوم. حدثَ أحياناً أن خرجت الأشياءُ عن اتّساقها. تنتظر مجموعة من الأشخاص تحت زهرةٍ أن يتوقف المطر الجليدي. يستخدم ثلاثة سكارى مغمى عليهم زعنفة سمكة منتفخة كبطانية. كان ثمة رجل يجلس في الوحل، يدّعي بأن عصافيرَ أعمته، يفرك عينيه بالروث. جلست امرأة حبلى على حجر وبدأت تنخر.
«أد» الجامدُ مُتَلَقٍّ، وبيتن يرسم حوله دائرة، وينفّس ما اعتمل في دخيلته. يقول «لن أمنح دجاجة منتوفة الريش لأحد في هذه القرية». وجاءت «إراي» بإبريق الشاي. عكّرَ بخارُه ولونه الهواء.

ومن جديد بادر بالقول، «نجلس جميعاً في فم مهول، نحاول أن نفكك دُمى رغبتنا الدقيقة، من هذا الابتهاج الهذياني إلى فيليتسيون اللوكري وفيليمون، الغبطة التي تتعفن ويعقبها ضحكُ منكم حتى الموت». هزّ رأسه وضحك، «لا. ليست بركة بمعنى الكلمة».

انحنت «إراي» العجوز، التي كانت طباخته وخادمته، فوق كومة التراب المتبقية منه. وضعت هناك زهرة قرنفل بري. وقفت ونظرت إلينا، كان وجهها يتقطّر مرارةً. قالت «هذه ليست حياة، إننا نعيش كالخنازير».

٥

ثم، في غضون لحظات، مضى «أد»، أدار ظهره وأصبح شيئاً مختلَقاً من بنات الأفكار، كما لو أنه لم يكن إلا غيماً ودخاناً.

مع دنوّ النهاية، قال بيتن، «هل تستطيعون تشمم عمال الإسفلت أثناء العمل، وهم يحاولون أن يلحموا العالم إلى بعضه مرة أخرى؟ حطبَ صنوبر في إناء كبير مكرَّساً لنهايتي محور العجلة، قروناً وحوافرَ مكسورة، لمداواة جرح، أو سعال، أو حتى صوت عجوز».

كنا في سبيلنا لأن نتصرف به، هذا البيت العتيق، والقرية. كان بوسع «سور» أن تتحرك هنا بحرّيّة.

سنتصرف به دون أن نغادر. سنحفر.

في المرة الأخيرة التي رأينا فيها «أد»، سألته «سور»، «ما الذي تعرفه عن هذه القرية في كل الأحوال؟»

قال «أد»، «ما النيران التي يحملونها داخلهم ويجولون بها، على أقل تقدير. ومن الذي أُكِل؟ ومن كان في مرجل؟ من تزوج أنثى جرذ لها عينا وأنف زوجته المتوفاة؟ من عليه أن يشرب بشكل دائم من برميل؟ من التي غطت السحالي ظهرَها؟ من الذي دُقَّ بالمطرقة على سندان؟ هم كثيرون جداً، قريبون جداً. أتفهمين؟ من الذي أشعل فتيل الغضب؟ من الذي احتذى نعلاً كحدوة حصان ثم امتُطِيَ ظهرُه؟ الآبار والأفران هي المتلقّي. من الذي نمت له ذراع إبريق؟ من التي جرجرت نفسها فوق الصخور وعانت من تأكُّلِ أطرافها فوق الأشياء الزلقة؟ من الذي اخترقته رشقةُ سهم؟ من تورّدَ، ومن ضرط بضحكة ساخرة؟ من ضاع وقُيِّدَ إلى بطّة؟ من التي كان عليها أن تلملم شتات نفسها مرةً أخرى، لمجرد أن يصبح من الممكن تشتيتها مرةً أخرى؟ ومن تولّى كل ذلك في الموسيقا؟»

كان بيتن قد حفر في التراب. تلاشى «أد» في الهواء. لن نرحل لأننا لن ننجزَ الوصولَ أبداً.

عصفور أعمى

١

استفاق قاتل الوحوش من حلم شائن. وجد نفسه وحيداً. وإذ استعاد الحلمَ، أدرك أنه كان غائباً فيه بطريقة تدعو إلى الاستغراب. أو بالأحرى، أُجبِر على سُكنى مجسّات روح الوحش. ففي الحلم، عاش انحرافاً حسياً تلو الآخر. في كل مكان، أحسَّ بصمت الخطيئة الدَّنِس.

في بعض الأحيان لم يستطع إلى النوم سبيلاً، فكان يتجوّل من غرفة إلى غرفة، يتساءل كيف يمكنه دفع النوم إلى الإزهار. حتى تشذيب أغصان الذاكرة الناتئة لم يكفِ أحياناً. استطاع آناءَ الليل أن يفكر بالذاكرة المرصّعة بالنجوم لبستان برتقال فحسب، وليس بما حدث فيه.

أصلح الموتُ، الهمودُ، كلَّ شيء. نبتت أشجار الخوخ حول منزله، وهي تحمرّ بالعار. لم تحمل أشجارٌ أخرى ثمة جدوى له، مجرد دغلٍ آخرَ يعبره كي يصل إلى ما يجب بتره إلى الأبد. يشبه خوفُهم الأبديُّ النباحَ المتواصل.

كيف سيجتثّ التأجُّجَ من داخله حيث كانت النيران العصية على الفهم تُلقَّم وتستشري؟

٢

بدت آلام رأسه مثل سقوط، وكأن السيطرة غابتْ لوهلة. يحاول العودة إلى نفسه لكنه يستشعر قربهم الشديد.

لم يكن هناك من علاج. عبرَ غرفة الأطفال، في الحلم، قُتِلَت عائلة الدُّمى بوحشيّة داخل بيت دُمى ابنته. نزل السلالم. وكان من الواضح له الآن، أن ورماً خبيثاً ينمو وسط الظلمة في مكان ما داخله.

لطالما كانت الظلمة قصيَّةً. في الماضي، سافر قاتل الوحوش إلى أراض بعيدة، وأحياناً إلى أماكن منعزلة ومجدبة. في هذه البقاع الضائعة، لم يكن ثمة شيء إلا الظلمة. وأولئك المهجورون، المتخبطون فيها، والجلد يحجب أعينهم، حين لا جذور يمضغونها، كان لملء فم من التراب أن يطيل الحياةَ لبضع ساعات.

ثم بدأت الظلمة تترصّد في أي امتداد لطريق مهجور أو أية غابة عذراء. ثم اضطر قاتل الوحوش إلى الاعتماد على إفادات الكاذبين والجبناء الذين لاذوا بالفرار، الذين لم يصونوا كرامتهم وبذلك يصون هو كرامته. كانت محاربة هذه الظلمة أسهل، تشبه قتل الهوام.

وفيما بعد، عمل الخوف والمرض على تفشّي الظلمةَ. فكان على قاتل الوحوش أن يترحّل لفترات أطول، وكمشعل اضطرّ لأن يغطّي مدًى واسعاً خطوة إثر خطوة. في أي مكان خارج سياج دارٍ ريفية أو وراء أسوار مدينة اكتستْ بالظلمة. اتّخذَ هيئَة أفاعٍ كبيرة مجنّحة، وفيضِ مهرطقين، أو لصوصٍ يتسترون بغطاء الليل. ومع عودته مظفراً من جديد، حاملاً رؤوسهم المقطوعة، سيغمرُ قاتلَ الوحوش الامتنانُ تجاه الدهماء كما ذوي النفوذ والتأثير.

٣

كل ذلك لم يوقف الظلمة عن انتهاك جدران أولئك الذين سعوا إلى كسب حماية قاتل الوحوش في نهاية الأمر. كانت الأشياء تُسرَق من الغرف واستطاع أن يشعر بالظلال تتحرك بينهم في شوارع البلدة.

أخيراً، وفي أحد الأيام، كان من الواضح أن الظلمة اخترقت صدورهم وأنها الآن تنمو في دواخلهم. وسيكون عليهم الآن أن ينظروا في أنفسهم. وإن كان هناك أدنى حد من الشك، فعلى قاتل الوحوش أن يشق بطن الشخص، كي يجد الظلمة، ويجتثّها. كانوا لا يزالون يأملون منه أن ينبش أورامهم ويستأصلها من جذورها. أينما أو متى وُجدت، كان ملزماً بقتلها. وكلما كانت

العمليّة أكثر دمويّة، كلما كان الناجون أشد امتناناً بعدها.

ما لم يعرفوه أن كل ذلك سيبلغ أوجه في حادثة عنف لا تميِّز الصّالح من الطّالح. كان الوقت متأخراً. في يوم الغضب، كانت السماء والأرض مرجلاً لا يخبو للمشاعر الملتهبة. بعدها، لن يكون ثمة نهاية للعذاب.

٤

منذ عبورنا جدار المذبح الذهبي إلى الجهة الأخرى فصاعداً، نعيش في مساحة من الصفاء. نرى الكثير من التصرفات، التي لم تزل هامة ولازمةً لأفراد معيَّنين، ضمن الجو المحيط بهم، تبعثْهم ككوكبة من النجوم. منحتهم المساحة ألواناً، روائح مختلفة، عقوبات ومهام أخرى. كان كل اختبار حافلاً بالأعمال المتطرّفة جسدياً. يطبقونها وتطبّق عليهم، وعلى حشود الآخرين الملتفّة كدوّامة في كل مكان، في دأبهم جاهدين أن يصبحوا أكثر فأكثر على ما هم عليه.

حين ارتكبَ القتلَ كان اسمه البلدة، كان خوفَها. كان النارَ التي ستحرق جهالتَها ذاتَها. ذلك كان يقينه.

نزَّ الحلم تفاصيل وأحاسيس. أدرك أن تلك التخاريم إنما كانت دم ضلالِ الحياة. أحسَّ برأسه يوشك على

الانفجار. كان ذلك لصالحه، سواء استمتع به أم لا، بل كان لصالحهم. كان سيجدهم ويقتلهم وكانوا سيجدون الصمت والراحة اللذين تاقوا إليهما.

٥

علم قاتل الوحوش بأنه كان جلفاً. شقّ طريقه باتجاه ساحة البلدة. بلَغَه الصفاءُ بيسر أكبر حين صار رهينَ ضجيجهم. في السوق، بينهم، وهو الملطَّخ برغباتهم، وشهواتهم، وحاجاتهم. تركهم يطأطئون رؤوسهم، تركهم يلتمسون.

بقي العالم يوغل في القذارة. كان يمكن للعالم أن يصبح نظيفاً بشَقّ وجهه فحسب، بإطباق فمه وحسب. كان عليه أن يتعلّم كيف ينزف الاحترام.

كلما غضبَ، دون سابق إنذار، داهمَ رأسَه شيءٌ ما. شيء صغير، سريع، طفيف، ارتدّ عن صدغه فكان كفيلاً بإخلال توازنه. ولدى سقوط قاتل الوحوش، كان متأكداً بأنّه ذُبِح، بأن هذا الشعور لا شك هو شعورُ من يُقتَل. وأثناء افتراشه الأرضَ، داخَلَه الخجل لاستمرار أفكاره. وقف محرجاً ومغتاظاً، يتطلّع حوله باحثاً عما قد يكون صدم رأسه. وجد عصفوراً ميتاً في الوحل. رفعه بين يديه، وخاطب من حوله، «من رمى هذا عليّ؟».

لكن كان كل ما رآه الوجوه الخائفة الصامتة. صرخ فيهم جميعاً، «أيّاً كان من رمى هذا عليّ فسيموت!»

الآن تغيرت الوجوه الخائفة، وتوقف مَن حوله في السوق عن أعمالهم واقتربوا. حين شعر قاتل الوحوش باقترابهم منه، حذّرهم، «لا تلمسوني! هل تسمعوني، لا تلمسوني!» كان يهاجمه شيءٌ ما لم يتمكن من رؤيته.

إذاً، كان هذا ما أنجزه الزمن، أن جعلَ الظلمةَ أقربَ.

من نافذة الطابق الثالث من النّزل، نظر «أد» إلى الاضطراب في الساحة. كان شيء ما على وشك الحدوث. خاطَبَ المرأة التي كانت تتأمله باهتمام شديد، «حان وقت رحيلنا».

الريح المجدولة

١

ومن ثم كانت الواقعة الأغرب على الإطلاق، واقعة والدَي «أد» و«سور» اللذين، بقوة إرادتهما المجردة، حوّلا نفسيهما من وحشين إلى حيوانين.

كانت «بيل». رهينة استبصارها الخاص، المخطّطة. كانت رشيقة. دحرجت صغارها في كرات بلّوريّة. كانت سماء ذاتها. تبعتها عصافير بيضاء وخضراء صغيرة. كانت بيل كلمةَ الريح.

كان «دِكْ». الماكر زكيّ الرائحة. الحكمة، والكرم، بل المستهلك لما قد أحبه في المقام الأول، والهاجعَ بعد الطعام. كان دِكْ عطر الحديقة.

منزل يحفل بالواجبات، تنسيق الزهور، وإصلاح الملابس، وكتابة الرسائل، والإعلان عن نبتة ما، وحفظ الدرّاق، وغسل الملابس، وفرك الأرض، وتسوية الحقل، وإصلاح السقف، والاعتناء بالحديقة، وتنظيف النوافذ، وتحضير العشاء، وطلي غرفة النوم، والقيام بكذا وكذا.

اكتسى البرتقال باللون الأحمر من تلقاء ذاته، فأصاب الظل ما تحت البراعم بالاحمرار. ثمة جسر من طيور العقعق.

لم يرَ أولئك الذين اقتربوا منهما الأمرَ. كان ما رآه الآخرون زوجين مسنَّين يقومان بأعمالهما اليومية على إيقاع الحياة. لم يتمكن الآخرون من رؤية أنهما فهد ونمِرةٌ عجوزان، يبتعدان عن أماكنهما، غير قلقين، غير باحثين عن شيء، يبتعدان عن كل شيء فحسب، فوق سهل جوّانيّ فسيح. كان من المستحيل، في تلك المرحلة، معرفة إن كانا يسيران معاً أم لا، لكن كان كلاهما يسير، ببطء، وتقريباً كتفاً لكتف، بعيداً عن الحيوات التي عاشاها. كانا يسيران حتّى يبلغا الموت.

هكذا. دفعتْ أغنية عسيرةٌ هيكلين عبر قماشٍ موشّى، منسوجَين منه وفيه، لم يكن أي منهما منجَزاً ومكتملَ الصيرورة. انضفر الصوتان فيما يتقدمان عبر خط أنفاسهما القَطْريّ الطويل.

لأجل الذبول، لفعل ما تفعله الزهور. كانت كل خطوة بتلة أخرى تسقط. كل كبوةٍ، سَداةٌ محنيّةٌ أخرى. لتخبوَ، ثم تتضاءل. كانت يداي مستغرقتَين في الأمر، فعلت السهام الألف فعلها بالمفاصل. الانتقال بعيداً، باتجاه ما هو أكثر ضآلةً. ومما يبعث على الارتياح إدراكي أني لن أنهي

عبور الزمن. مهتلِكٌ أنا لكني أواجه الأمام، أندفع أبعدَ. ومحوراً إثر محور، تتفكك مفاصل الأوراك.

ستوقظ المياه الباردة الأعصاب، ثمة نخرة الخنزير، وغَذُّ السير، فلأستثمر ذلك، ولأعْدَم ومضةَ يقظة واحدة، ليس الأمر سهلاً، لكنه مستقرّ، اعثرْ على الأشياء الصغيرة كي تُقيتَ بها الساعات، لا رشاقة بعد الآن، بل أرسم الابتسامة. كان ذلك أكثر مشقةً بالنسبة إلي. أنا أقسى، وأسرع، وأقوى، وأكثر جوعاً منك، أنا مخططة. وماذا إذاً؟ ليس الابتعاد عن المكْر الحلو بأقسى من فقدان الحيلة، والاضطرار للنأي عنها، أيها الماكر الحلو. مسحوق لتجفيف الحبر ينحل في الماء، ثقَلُ نوعيٌّ لن يثير ورقةً نباتية بعد الآن.

أمسّد مفاصل أصابعي، أنحني على العقدة مجدداً، لا شيء قد ارتخى: أشُدُّ، أتوقف، أتنفس، أشد مجدداً، لم تعد كل الأشياء مزهرةً في الألوان المتمازجة هنا، تحاول النأيَ الآن عن التخويض في الرماد، هناك جمر يمشي، يتجوّف حتّى يجف، ينزّ من العظام فيتورّم قبل أن ينبجس بهدوء شراباً مُسكِراً يروي شقوق التراب. الصحراء في الداخل.

وفي الخارج، هناك في البعيد، لا مزيد من الدوران، لا عودة لملء المخزون أو الاضطجاع بعد الآن، مجرد مِضَغٍ

غثيثة للإبقاء على الشواش قيدَ الحركة، الإبقاء على نقل الفوضى الكامنة وراء السأم حتى تُستَهلَك، إنه استنزاف هادئ يُسلَم إلى الريح، لتزفره فترحل معه، وحشيةً ومنقوصة، لكن غير ناشزة بعد الآن، بما هي جزءٌ من كل شيء الآن، الآن بينما يصْفرُ كلٌّ شيء فوق الأرض...

"بانزلاقه معنا، استثار الضوءُ الآتي من لهب المشعلِ انعكاساً خافتاً من الظلمة الملساء للبحيرة، ضوءاً صقيلاً، وتواصلَ الصمتُ واقتربنا من المركز حيث أعماقُ البحيرة السحيقةُ، بدأ هذا الضوء المنبعثُ يجلي أكثر فأكثر وجهاً لملاك، ومهما تبدّى مبهماً لأولئك الذين على ظهر المركب، إلا أنه بسَط غشاءً نورانياً على سبخات البحيرة الضحلة، وهكذا كفانا شرَّ اللوياثانات العصية والمهولة التي انفلتت من إسارها ودفعتْ باتجاهنا الاحتمالَ الذي انطوت عليه الظلالُ، احتمالَ أن نبتلع."

"رواية ماريو أنخل كينتيرو هذه رواية مذهلة. إنها كتابة غارقة في أجواء السحر، الأمر الذي يجعلها تخلق عالماً موازياً من العجب والمعنى العميق. كما أنها نوع من القصّ الذي هو شعر خالص بمعنى الكلمة، يعتمد على التقطّع الآسر في السرد، وعلى التحليق فوق المنطق الخطّي لواقع الحياة اليومية، وعلى تآلف أصداء الصوت المتعدد، والتي، في تعزيز وقْعِه الموسيقي بشكل كبير، تجعله عصياً على الترجمة بالتأكيد".

الكسندر شوربانوف